في ظلال الإسلام (١٢)

طريق جارودى إلى الإسلام

الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ

المفكر الإسلامى

الدكتور محمد عمارة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠
http://gate.dar-elmarf.com

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ١٥٧٠٣
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7851-2

١ / ٢٠١٣ / ٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)

تصميم الغلاف: أيمن القاضى

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

طريق جارودى إلى الإسلام

الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ

قائمة المحتويات

مقدمة ٧

تمهيد بين يدي الدراسة ٩

تقديم أسعد حليم ٢٣

الحضارة العربية والدور الذي مثّلته في التاريخ ٢٥

تجاهل مُغْرض ٢٩

الفتح العربيّ حطّم حكم الإقطاع ٣٠

مساهمة العرب في بعث الغرب ٣٣

تراث الحضارة القديمة ٣٨

إنتاج أصيل ٤٠

فكر تجريبي وعلمي ٤٢

من التكنيك إلى العلم ٤٥

فلسفة عقلية وفكر نقّاد ٤٩

النظام الاقتصاديّ والاجتماعيّ ٥٢

التنظيم البلديّ ٥٦

السابق ابن خلدون ٥٧

انهيار الحضارة العربيه ٦١

الإمكانيات التاريخيه التي تؤمن بعث الحضارة العربية ٦٢

* * *

مُقَدِّمَة

هذه الدراسة ـ التي نقدِّم بين يديها ـ قد عُني بها اليساريون العرب ، فترجموها ونشروها سنة ١٩٤٧م ؛ ليقولوا لجماهير الأمة المسلمة : ها هو فيلسوف شيوعي ينتصر لحضارة العرب والمسلمين ، وينصف التاريخ الحضاري للإسلام .

وقد ترجمها ـ في بيروت ـ « قدري قلعجي » ، ونشرتها المجلة اليسارية اللبنانية [الطريق] . ثم قَدَّم لها المترجم والباحث اليساري المصري « أسعد حليم » ، ونشرتها « دار الفجر » – اليسارية – بالقاهرة في أغسطس سنة ١٩٤٧م .

أما وقد وَصَلَ جارودي إلى شاطئ الإسلام ، فإن إعادة نَشْر هذه الدراسة قد أصبح جزءًا من الكشف عن الإرهاصات والمحطات التي قادت هذا الفيلسوف الكبير والمناضل البارز إلى ضفاف الإسلام .

ولقد آثرنا – في فاتحة هذا التمهيد – الذي نقدِّمه بين يدي دراسة جارودي عن [**الحضارة العربية والدور الذي مَثَّلته في التاريخ**] أن نقتبس من كتاباته الإسلامية فقرات هي أشبه ما تكون « بالبيان الإسلامي للفيلسوف المسلم رجاء جارودي » ، ليعلم الباحثون والقراء أن هذه اللحظة الحميمة التي التحم فيها عقل جارودي وقلبه بالإسلام إنما كانت الذروة لمسيرة فكرية لخير ما

في الشرائع الدينية السابقة ، والذي أبدع حضارة إنسانية ، كانت - ولا تزال - هي الأخرى - الجامعة لخير ما في تراث الحضارات الإنسانية ، السابق منها واللاحق على ظهور الإسلام .

تلك هي رسالة هذا التقديم ، وهذه هي مكانة هذه الدراسة للفيلسوف المسلم « رجاء جارودي »[١] .

والله من وراء القصد ، نسأله السداد والتوفيق ، إنه خير مسئول وأكرم مجيب .

د . محمد عمارة

القاهرة في صفر سنة ١٤٢٩ هـ
فبراير سنة ٢٠٠٨ م

---

(١) بعد إسلام جارودي ، أثارت بعض آرائه جدلا في كثير من دوائر الفكر والعلم الإسلامي .. ولقد كانت الكتابات الاستشراقية ، التي أخذ عنها جارودي ؛ السبب الأول في هذه الآراء التي اختلف معه حولها الكثيرون .. ولقد نشرت - في عقد التسعينيات من القرن الماضي - دراسة نقدية وحوارية حول بعض هذه الآراء ، ضمنتها كتابي [الأصولية بين الغرب والإسلام] طبعة دار الشروق - القاهرة .

تمهيد بين يدي الدراسة

بعد رحلة فكرية خصْبة وشاقة ، تَحوَّل الفيلسوف الفرنسي الكبير « روجيه جارودي » [١٩١٤ -] إلى الإسلام سنة ١٩٨٢ م ، وأصبح اسمه « رجاء جارودي » .

وعندما تحوَّل جارودي إلى الإسلام كان واحدًا من أبرز أعلام الثقافة الفرنسية ، والفكر الفلسفي في فرنسا ، ولذلك قيل - والله أعلم - إن المستشرق الفرنسي الشهير « جاك بيرك » [١٩١٠ - ١٩٩٥] قد أصابته الصدمة ، فقال - عندما سمع بإسلام جارودي - : « هذا يومٌ أسود » !!

ولقد أحْدَث إسلام جارودي هزَّة كبرى في العالم الغربيّ ، وفي العالم الإسلامي ، أي في العالم بتعميم وإطلاق .

ولقد تحدَّث جارودي - بعد إسلامه - عن رحلته الفكرية - الخصْبة والشاقة - التي انتهت به إلى ضفاف الإسلام ، فقال : **« لقد كنت لا أدريًّا ، كأبويَّ . واتصلت بموريس بلونديل [١٨٦١ - ١٩٤٩ م] - الفيلسوف الكاثوليكيّ - . وتحوَّلْتُ إلى الكاثوليكية ، وتحمَّسْتُ لها . ثم تركْتُ الكاثوليكية إلى الماركسية ، وصرت نائبًا في البرلمان . وأنشأت سنة ١٩٦٠ م (مركز الدراسات والأبحاث الماركسية) .**

« .. ثم تَنبهْتُ إلى النظرية الإسلامية ، وتتبعْتُ مصادر الإسلام إلى الأصول الإبراهيمية ، وهي الأصول الأكثر استيعابًا لكل الأديان . والذي يريحني في الإسلام أنه ديانة لا تَنْفِي غيرَها من الديانات ، ولا تُنْكِرُ المسيحية ، لأن الإسلام يبني على ما سبقه ـ المسيحية واليهودية معًا . ولقد أذهلتني صورة المسيح في القرآن . والمسيح في النظرية الإسلامية نبيّ من أنبياء الإسلام ، لأن الإسلام هو الدين ، وما سواه ليس إلا مِلَلًا » .

ولقد تحدَّث جارودي عن الإسلام – العقيدة والشريعة والحضارة مقارنة بالحضارة الغربية – فقال : « إنّ الإسلامَ هو البديل لكل الأيديولوجيات المعاصرة ، وإن الحضارة الغربية أفْلَسَت ، وتحوَّلَت إلى الإلحاد ، وتتصف بالشرك . وإنَّ المسيحية ، رغم صمودها حتى الآن ، إلا أنها لم تَعُدْ ذاتَ فعالية .

والحقيقةُ التي نعيشها تحتلها ثلاثة آلهة يتعبدها الإنسان الأوربي المعاصر ، هي : النمو الاقتصادي ، والقومية ، والفلسفة العلمية الوضعية :

والأول : أي النمو الاقتصادي ، يفتقد الغاية الإنسانية ، وتأخذ به كلُّ دول العالم بحسب المفهوم الغربي ، وما يزال النتاجُ متزايدًا ويتسارع ويتعاظم بصَرْف النظر عن الحاجة

الحقيقية للسلع المُنْتَجَة في ظلِّ هذا النمو ، وسواء كانت هذه السلع مفيدة أو ضارة ، تمامًا كالأسلحة التي صارت تجتذب أكبر الاستثمارات لأنها تحقق أعلى نسبة من الأرباح ، وبتهافت العالم اليوم على الإنتاج السلعيّ على حساب التنمية الحقيقية للمجتمعات وصالح الأفراد والأمم .

والثاني : أي القومية ، من شأنها أن تولِّد الانقسامات . إنَّ القومية لم تنشأ أصلًا إلا على أنقاض الوحدة المسيحية الأوربية ، وكان بُزُوغها بسبب الرأسماليات الوطنية . والقومية في أوربا نقيض الأممية الإسلامية ، التي من دأبها التأليف بين مختلف المجتمعات الإسلامية وجمعها ولَمّ شَملِها .

والثالث : وهو الفلسفة الوضعية ، لا تجعل للعالم غايةً ، وإنما تجعلُه هدفًا في ذاته ، وتفصله عن الأخلاق والقيم والمبادئ والإيمان بالمطلق ، وبذلك يتحوَّل العلم عن إنسانيته ولا يصبح في خدمة الإنسانية ، وإنما يتوخَّى إخضاع الإنسانية والاستبداد بالإنسان ، وتدمير النبالة والسمو فيه . والعلم الحديث صار ديانة الوسيلة ، وانفصمت عُرَاه بالحبِّ والإيمان والجمال ، وامتلك التقنية التي يمكن أن يُبيدَ بها الحياة برمتها فوق البسيطة .

والإسلام ، على العكس ، يوظف المعرفة والعلم وكل القيم

في خدمة الإنسان والحياة وتعمير الأرض ، فالإنسان خليفة الله في الكون ليعمره لا ليُدَمِّرَه .

والإسلام يرفضُ فكرة الشعب المختار ، وأن يكون المرء مسلمًا يعني أن تكونَ له الوسيلة الأقوى للكفاح ضد الصهيونية .

والإسلام هو الديانة الأكثر عالمية وشمولية . وهو يَضمُّ الديانات السابقة جميعها – الموسويَّة والمسيحية ، والعقائد منذ نوح ولوط ويونس إلى إبراهيم . وما شدني إلى الإسلام أكثر : « الإسلام العقيدة » ، وليس فقط « الإسلام الحضارة » . إنَّ الإسلام قد أسَّسَ روابط جديدة بين الإيمان والسياسة ، ومن ثمَّ بين الإيمان والعلم . والتوحيد في الإسلام ، ليس فقط التركيز على وحدانية الله ، ولكن على وحدانية العالم . وكل شخص رغم تميزه لا وجودَ له إلا في إطار علاقته بالكل وبالربّ الخالق .

والشريعة الإسلامية ليست مجموعة قوانين فحسب ، بل طريقة حياة ، وهي قانون ملزم كثير المطالب ، ومسيطر على كلِّ وجوه الحياة الداخلية والخارجية . ومن الممكن للإنسان أن يغش ويخدع في عمله أو في تعامله مع الآخرين ، لكنه يستحيلُ أن يفعل ذلك إذا آمن بأن الله يراه ، وأنه سميعٌ بصيرٌ عليمٌ .

وتطبيق الشريعة يعني إفادة مجتمع لا تتكدَّس فيه الثروات ،

والله يقول : ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وليس تطبيق الشريعة أن نبدأ في تطبيق العقاب قبل أن نوجدَ أسلوبًا في التربية ، ونقيم نظامًا سياسيًا يوحي للفرد وللمجتمع بالكرامة جنبًا إلى جَنْب مع الشعور بالواجب . ومعنى أن يكون الإنسان مسلمًا : هو أن تعيش حياتك كلها تتقي الله .

ومن التعسُّف البيّن أن نجتزئ الشريعة ولا نأخذ بها جميعها ، ولا يمكن تطبيق حدّ السرقة مثلا على السارق إلا في سياق العدالة الاجتماعية . فلو توفرت هذه العدالة لما كانت هناك سرقات ، ومن ثمَّ لما كانت هناك حاجة للعقاب . ونلاحظ أن عمر بن الخطاب لم يعلق حد السرقة في وقت المجاعة ، وإنما لم يرَ تنفيذه – وهو أمر الله ـ بدون ان تتوافر له شروط التطبيق .

وإن معظم الانتقادات التي توجَّه لي عن الإسلام تتعلّق بوضع المرأة . والغربيون في طرحهم لهذه القضية يفصحون عن خُبثهم ، لأنه إذا لم يكن تعدُّد الزوجات في قوانينهم ، إلا أنهم يمارسونه بالأفعال ، والزنا قاعدة عامة في سلوكهم .

وإنَّ العالم الإسلاميّ لم يتدهور إلا بسبب جمودِه في فَهْم نصوص الشريعة ، ولذلك ، ينبغي أن نتعامل مع القرآن ونصوص الدين بشكل شامل ، فنبحث عن الجوهر ، ونجتهد الرأي ، ونستخرج الفكر الأزلي أو الثوابت في الإسلام ، والمقاصد والمعاني الكبيرة ، ونستعين بها في حلِّ مشاكلنا المعاصرة . فالاجتهاد هو الذي يقدم حلولًا عصرية لقضايا العصر من المنظور الإسلامي .

إنَّ الإسلام يحتاج إلى إعادة اكتشاف ، ومسئولية المسلمين هي صُنْع فِكر القرن الواحد والعشرين ، والإسلام قادرٌ على حلِّ مشاكل كلِّ العالم . لقد كان الإسلام دائمًا دين الجمال ، وتحريم الفن ليس له أصل في الدين . وإن الحضارة الأوربية ، ابتداء من القرن السابع عشر ، ادعت أنها قادرة على إدارة العالم وشؤونه بدلًا من الخالق ، والإنسان الجديد يحلم بسعادة أن يمتلك ويسيطر على الطبيعة ، بالعلم والتكنولوجيا التي تعطيه السلطة على الآخرين ، وعلى كوكب الأرض بأسره ، ويعوزه الإيمان ، ويسير بخطى حثيثة نحو تدمير كلِّ شيء . أمَّا الإسلام فهو على العكس من ذلك ، ينفتح على العالم ، وعلى العلم ، ويُوَظِّفُهما لخدمة الإنسان ومعرفة الله ، ومعرفة الله هي أن تتقيه في

الناس ، وفي الطبيعة ، وفي كل الموجودات ، فلا يكون استخدامها إلا بقدر ، وبعلم ، وفيما يحقق الخير والعدل والجمال » .

هكذا تحدث جارودي ، حديث الفيلسوف المسلم ، بعد أن اهتدى إلى الإسلام .

* * *

ولقد فوجئ كثيرون – في الغرب والشرق – ليس فقط بإسلام هذا الفيلسوف الكبير – وإنما بعمق العلاقة الحميمة بينه وبين الإسلام ، وبشمول وَعْيه الفلسفي لشمولية المنهاج الإسلامي ، وتميزه عن مناهج الأنساق الدينية والفلسفية الأخرى . وكذلك وَعْيه الناضج بتميز العطاء الحضاري للإسلام عن النموذج الحضاريّ الغربيّ – الذي كان جارودي واحدًا من فلاسفته البارزين على امتداد أكثر من نصف قرن – وتأكيده الشديد على أن الإسلام ونموذجه الحضاري هو العلاج لمشكلات العالم وأمراضه – الروحية والمادية – في الحاضر والمستقبل .

وأمام هذا المستوى في الفهم العميق للإسلام ، الذي فُوجِئ به الكثيرون ، كان لا بدَّ من النظر في « التاريخ الفكري لجارودي » ، وتلمُّس علاقاته التاريخية بالإسلام ، والبحث عن الإرهاصات والمقدِّمات التي سبقت وصوله إلى شاطئ الإسلام .

لقد كانت اللحظة الأولى التي شدت انتباه جارودي إلى الإسلام ، شديدة التأثير في حياته وعقله ووجدانه ، بل لقد كانت لحظة الميلاد الجديد الذي أُنقذ حياة هذا الفيلسوف من الإعدام !

ففي أثناء الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥ م] كان جارودي - المناضل الشيوعي - قد انخرط في صفوف المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازيّ لفرنسا ، لكنه وَقَعَ في أسْرِ الحكومة الفرنسية الخائنة - حكومة « فيشي » [١٩٤٠ - ١٩٤٥ م] بزعامة الجنرال « بيتان » [١٨٥٦ - ١٩٥١ م] التي كانت متعاونة مع الجيش النازي ضد الحلفاء والمقاومة الفرنسية .

وفي معسكر الاعتقال تمرَّد جارودي مع عدد من الأسرى ، فأصدر قائد المعسكر أمرًا إلى الجنود بإعدام هؤلاء المتمردين رميًا بالرصاص ، وأيقن جارودي أن لحظة الإعدام على وشْكِ الحدوث ، ولكن المفاجأة المذهلة كانت في امتناع سجَّانه عن أن يُطلقَ عليه الرصاص . وكان هذا السجان جنديًا جزائريًا مسلمًا يخدم في الجيش الفرنسيّ . فلما سأله جارودي : لماذا لم تنفذ أمر قائدك ، وتطلق عليّ الرصاص ؟! كان جواب الجنديّ المسلم : لأني مسلم ، والإسلام يُحَرِّم قَتْلَ الأسير !

وهنا سَمِعَ جارودي اسم الإسلام مقترنًا بهذه القيمة الأخلاقية

النبيلة والفريدة ، التي جعلت هذا الجندي المسلم يُعَرِّض نفسه لأشد المخاطر في سبيلها ! ورأى كيف أن قِيَمَ هذا الإسلام ومبادئه كانت المنقذ الذي وَهَبَ له الحياة من جديد !

ولقد لفتت هذه الحادثة نَظَرَ الفيلسوف الشيوعي إلى الجزائر المسلمة ، وإلى قيمة هذا الإسلام ، فقرأ عن أمير المقاومة الوطنية الجزائرية الأمير عبد القادر الجزائري [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ / ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م] ورأى - من خلال سيرته - صفحة من صفحات الحضارة الإسلامية ، البسالة في الجهاد ضد الاحتلال ، والإنسانية الحانية التي أنقذت أرواح الآلاف من غير المسلمين إبان الفتن الطائفية في الشام سنة ١٨٦٠ م ، فكانت هذه هي « المحطة الثانية » في اقتراب جارودي من الإسلام .

أما المحطة الثالثة - والمهِمَّة - فكانت الدراسة التي كتبها جارودي - عقب الحرب العالمية الثانية - عن [الحضارة العربية الإسلامية والدور الذي مثلته في التاريخ] ، والتي أنصف فيها الإسلام وحضارته ، حتى لقد اعتبر هذه الحضارة ، والفتوحات العربية الإسلامية في آسيا وإفريقيا - وحتى أوربا - نموذج التقدُّم والرقي اللذين أنقذا البلاد المفتوحة من الرجعية والتخلف والظلم والانحطاط .

نعم ، لقد كَتَبَ جارودي هذه الدراسة الرائعة في إنصافها للإسلام وحضارته ، وهو في قمة تألقه كفيلسوف ماركسي ، ومناضل كبير في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي .

وعلى حين كان الشيوعيون يعتبرون « الشيوعية شباب العالم » ، فإن جارودي – في هذه الدراسة التي نقدم بين يديها – قد اعتبر « الإسلام شباب العالم » وذلك عندما قال : « **إنَّ الإسلام ، حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ، قد أوجد ، بفتوحاته الواسعة نفسها ، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم** » .

ودافع جارودي عن الفتوحات الإسلامية التي جدَّدت الحضارة وشباب العالم ، حتى لقد اعتبر تراجع هذه الفتوحات عن أن تشمل سائر أوربا كارثة حضارية لأوربا والأوربيين ! ذلك أن الفتح الإسلامي كان « بعثة تمدن أكثر منه فتحًا » ، وكانت الحضارة الإسلامية هي الرحيق الحاوي والوارث لخير ما في تراث الحضارات الإنسانية عبر القرون التي سبقت ظهور الإسلام ، بل والمنقذ لهذا التراث الإنساني من الموات .

وفي هذه الدراسة ظهر اهتمام جارودي بالعلم الإسلامي والتراث الإسلامي في الفلسفة والعمران ، وظهر استيعابه لكتابات الأوربيين الذين أنصفوا هذا التراث .

ولقد ساعد المنهاج الماركسي المنحاز للعدل الاجتماعي ، الفيلسوف جارودي على اكتشاف كنوز الإسلام في العدل والإنصاف والتكافل - وهي كنوز جاءت في القرآن الكريم ، ووضعتها السنة النبوية في الممارسة والتطبيق .

ولأن جارودي قد كَتَبَ هذه الدراسة - التي مَثَّلَت المحطة الثالثة من محطات اقترابه من الإسلام - وهو في أوج انتمائه للماركسية ، ونضاله في الحزب الشيوعي الفرنسي ، فلقد رأي في تجارب الجمهوريات الإسلامية السوفيتية - مثل كازاكستان وأوزبكستان - نموذجًا للنهوض الإسلامي بعد فترات الركود والتراجع التي أصابت الحضارة الإسلامية ، وقطع بأن هذا التراجع ليس ضربة لازب ، ولا هو نهاية هذه الحضارة - كما يزعم العنصريون الرجعيون - فالعرب والمسلمون يستطيعون - كما يقول - « **أن يساهموا مساهمة كبرى في ميلاد حضارة أصيلة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتقاليد الثقافة العربية القديمة وتراثها العريق ، كما ترتبط بفتوحات الحضارة الغربية المعاصرة** » .

وعندما زار جارودي القاهرة سنة ١٩٦٨ م ، وألقى محاضرته الشهيرة في مبنى صحيفة « الأهرام » - وكنت واحدًا من شهودها - طرح على العقل العربي والمسلم فكرة أصالة التراث الإسلامي ، وتميز

مناهج الفكر فيه ، الأمر الذي يجعل النهضة العربية الإسلامية المنشودة امتدادًا لهذا التراث ، وليست تقليدًا للذي انتهى إليه الأوربيون !

فانطلاقًا من الفيلسوف ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١٤٠٦ م] - مثلاً - يمكن بلورة فلسفة إسلامية معاصرة . وانطلاقًا من ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] والثورات الاجتماعية التقدمية في التاريخ الإسلامي ، يكون الطريق الشرقي إلى التقدم والعدل الاجتماعي .

أما اللحظة الحاسمة التي صَعَدَ فيها جارودي إلى القمة ، فكانت لحظة التحامه بالإسلام .. وانتمائه للإسلام .. وولائه للإسلام ، باعتباره العقيدة .. والشريعة .. والحضارة المنقذة لهذا العالم من الكابوس الذي انتهت إليه الحضارة الغربية في الميادين الروحية والمادية على حدٍّ سواء . ومنذ ذلك التاريخ - سنة ١٩٨٢ م - توالت إبداعات الفيلسوف المسلم « رجاء جارودي » في الفكر الإسلامي ، حتى لقد أصبحت هذه الإبداعات « مكتبة » تفوقت - نوعًا وكمًا - على إبداعاته في السنين الطويلة التي سبقت وصوله إلى ضفاف الإسلام .

لقد كتب [فضْلُ الإسلام على الحضارة الأوربية] ، و [وُعُود الإسلام] ، و [الأصوليات المعاصرة] .. وغيرها كثير . كما رَكَزَ

على فَضْح العنصرية الصهيونية - عنصرية شعب الله المختار - المتحالفة مع الإمبريالية الغربية ضد العرب والمسلمين . ومن ابرز إبداعاته في هذا الميدان [الاساطير المؤسسة لدولة إسرائيل] . ولقد دَفعَ ثمنَ هذا الموقف البطولي : عداءً وتجريحًا ، واتهامات ومحاكمات وسِجنًا وغرامات ، وحصارًا ثقافيًا وإعلاميًا هو اشبه ما يكون بالاغتيال المعنوي ، الأمر الذي فضحَ دعاوى الحرية التي يتشدق بها كثير من الأوربيين !

تقديم

الحضارة العربية .. موضوع يبدو لكثير من المثقفين كأنه موضوعٌ ثَقيلٌ قديمٌ . أول ما يبعث إلى الذهن صورة تلك الكتب الصفراء ذات الورق البالي ، وذات الحروف المطموسة التي لا تكاد تبين .. وهو تلك المجموعة من المعارف المتحجِّرة ـ التي أفرغ منها ماء الحياة ـ يحشرُها طَلَبَتُنا الأزهريون في رؤوسهم عن طريق التكرار .. ثم التكرار

بل كثير من مُثَقَّفينا الأحرار أنفسهم ـ في اتجاههم نحو ثقافة الغرب والأخذ عنها ـ يميلون إلى عدم إيفاء الثقافة العربية حقَّها ، وقليل منهم مَن يضعها وَضْعَها الصحيح ويتبين بجلاء الدور الذي مَثَّلَتْه في التاريخ . ولم يكن هذا غريبًا ؛ فإنَّ المستعمرين الذين أخْضَعوا الشرقَ لسلطانهم ، قد حرصوا على أن يَغْمِطوه حَقَّه ، وأن يشوِّهوا تاريخه ، وأن يُبَيِّنوه في صورة الشرق الذي عاش عمره متأخرًا ، والذي لم تزدهر فيه يومًا حضارة أو ثقافة أو عمل ذو شأنٍ .

المستعمرون هم الذين حرصوا على إخفاء مفاخر الحضارة العربية ، ليخفوا بذلك معالم جريمتهم ، وليزعموا أن البلاد العربية ـ والفكر العربيّ ـ كانت دائما متأخرة ، لا أنهم هم الذين أخَّروهم ، بفعلهم ، وبسياستهم الإجرامية .

المستعمرون هم الذين حرصوا على إخفاء هذه الصفحات المضيئة من تاريخ العرب ، لكن المثقفين الأحرار ، أنصار التقدُّم من أبناء الشرق أو الغرب ، من أبناء العرب أو الإفرنج ، يحرصون بدورهم على جلاء الحقيقة كاملة ، وعلى وَضْعِ كلِّ شيء في وَضْعه الصحيح ، فَهُم الذين يحرصون اليوم على إزاحة الغبار عن هذه الحقبةِ من حقبِ التاريخ ، وعلى وَضْعِ الحضارة العربية وَضْعَها الحقيقيّ من حضارة العالم .

فمؤلف هذه الرسالة هو « روجيه جارودي » عضو الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ ، والكاتب والمؤلّف المعروف في فرنسا وفي كثير من الأوساط الأوربية . ولعلَّ في وَضْعِه هذه الرسالة القيمة ، التي تدلُّ على اطلاع واسع وتقدير عظيم للثقافة العربية ، ما يدحض تخرُّصات الأوساط الرجعية والاستعمار ودعاتها ، عندما تزعم أن الفكر الماركسيّ غريب على العَرَب أو عدوّ للإسلام .

وقد قمنا بترجمة هذه الرسالة ودَفَعْنَا بها إلى المطبعةِ ، ثم تلقّينا العدد الأخير من مجلة « الطريق » البيروتية ، فإذا بها ترجمةٌ بديعةٌ للرسالة نفسها بقلم الأديب اللبنانيّ الكبير الأستاذ قدري قلعجي ، فلم نتردد في استبدال هذه الترجمة التي بين يدي القراءِ .

وحسبنا أن نكون ـ بهذا العمل ـ قد أضفنا ضربة أخرى إلى الضربات التي يكيلها الشعب المصريّ اليوم للاستعمار ، سواء في ميادين السياسة أو الفكر والثقافة .

أسعد حليم

دار الفجر : أغسطس سنة ١٩٤٧

الحضارة العربية

والدور الذي مثلته في التاريخ

دراسة لجارودي نشرت قبل إسلامه

سنة ١٩٤٧م

كان أول ما قام به النازيون ، لما استولى زعيمهم « هتلر » على الحكم ؛ أنهم بادروا إلى جامعة « هيدلبرغ » وانتزعوا من واجهتها الشعار القديم الذي يقدم تلك الجامعة العريقة هدية « إلى الفكر العالمي » ، ونَصبوا مكانه شعارَ الوثنية الجديدة : « إلى الفكر الألماني » . وقد كانت تلك البادرة رمزًا لتجزئة الثقافة والتفرقة بين بني الإنسان . فإن كتاب « كفاحي » الذي يُسَمِّي الفرنسيين « خلاسيين » ، ويصنف الشعوب الإفريقية في الدرجة الرابعة عشر والأخيرة بين العناصر البشرية ، كان يحمل إلى العالم نظرية رجعية قوامها التفريق البيولوجي بين الأجناس ، والتمييز بينها بالنسبة للدم الذي يجري فيها ، وهي نظرية تنكر ثلاثين قرنًا من المدنيَّة ، وتعود بالإنسانية إلى همجية الغاب . وليس ثمة مَنْ يُمَثِّل الرِّدَّة الفكرية والتَّقَهْقُر السياسيّ والاجتماعيّ ، كما يمثلها أصحاب نظريات التجزئة والتفرقة هؤلاء . وقد سَبَقَ لكارل ماركس أن قال : « إن كلَّ سياسة تُفَرِّقُ هي سياسة رجعية بلا مراء » .

وإننا لنرى اليوم أشكالًا جديدةً من التفرقة والتخصيص ، تخْلُف الفاشية بعد انهيارها الفكريّ والعسكريّ . فإن أولئك الذين ينصبون أنفسهم حماة للكتلة الغربية في الميدان الديبلوماسيّ ؛ وللديمقراطية الغربية في الميدان السياسيّ ، وللحضارة الغربية في الميدان

المصري ؛ يمثلون قوى الرجوع والعدوان والافتراس ذاتها التي كان يمثلها واضعو « التضامن الأوربيّ الغربيّ » الذي تمخضت به الفاشية أي أنهم يمثلون الشركات الاحتكارية الاستعمارية . وهم الذين يحاولون اليوم بدوافع بترولية واستراتيجية محضة ، إنشاء « كتلة شرقية » في الشرق الأدنى ، معتقدين أن في وسعهم – بفضل هذه الكتلة التي يتسلمون قيادتها – الاستمرار على استخراج البترول والتنعُّم بأرباحه الفاحشة ، وإبقاء الشعوب العربية المختلفة تحت سيطرتهم الاستعمارية . وسبيلهم في كلا الأمرين واحد وهو إقامة المبررات الفكرية لتلك السياسة الاستعمارية المفترسة ، القائمة على الاستثمار والاستئثار والمعادية للاتحاد السوفياتيّ .

أما نحن المفكرين التقدميين فإن موقفنا لواضح : إننا نريد ـ لا في الميدان الديبلوماسي ، ولا في الميدان السياسي ، ولا في الميدان الفكريّ ـ أن نَفْصِلَ الغرب أو الشرق عن بقية العالم أو عن الثقافة العالمية . إنَّنا لا نريد أن نجعلَ من الغربِ أو من الشرقِ جزيرة ، وإن كانت جزيرةً بريطانية .

تجاهل مغرض

من مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يَنْتَهِجُها المستعمرون، إنكارُهم الدور الذي مَثَّلَتْه الحضارة العربية في إنشاء العالم الحديث.

إنَّ مؤامرةَ الصمتِ عن هذه الحضارة، أو التشنيع المنظّم بها، إنما ترمي إلى تجاهل حقيقة راهنة، وهي أن الشعوب العربية قد ساهمت، في ظروف تاريخية معينة بين العصور القديمة وعصر النهضة، مساهمة فعالة في التقدّم الإنساني في جميع ميادين الفكر والتكنيك.

ولقد باتَ الطالبُ الأوربي حين تساوره الرغبة في دَرس الفتح العربي، يشعر – وهو يقرأ ما وُضِعَ بين يديه من كُتُب صغيرة مختصرة – بأنه أمام سرٍّ عجيب أو معجزة خارقة. ولا يجد مَن يُفَسِّرُ له أسباب أو نتائج تلك العاصفة البشرية التي امتدت في خلال سنوات معدودة، من بحر الصين إلى المحيط الأطلنطي.

على أننا إذا طرحنا ذلك التغرض الاستعماريّ والعنصريّ، بَدَت لنا هذه الحقيقة الأولية: إن الإسلام – حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصّة – قد أَوْجَدَ، بفتوحاته الواسعة نفسها، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة، ولتجديد شباب العالم.

❊ ❊ ❊ ❊

الفتح العربي حطّم الإقطاع

لقد أوجد الفتح العربي الظروف الاقتصادية والاجتماعية المواتية للمهمة التي قام بها ، بإزالة الفوضى الإقطاعية وطبقاتها الطفيلية .

في سنة ١٨٦١م ، قبل أن تنطلق نزعات الافتراس الاستعمارية ، وحينما كان المؤرِّخون الإسبانيون لا يترددون في تمجيد تراث الإسلام ، كتب المستشرق الكبير « دوزي » في الصفحة ٤٣ من الجزء الثاني من كتابه « تاريخ المسلمين في إسبانيا » :

« لقد كان الفتح العربيّ نعمة بالنسبة لإسبانيا ؛ لأنه أدى إلى ثورة اجتماعية مهمة ، وأزال قسمًا كبيرًا من المساوئ التي كانت إسبانيا تئِنُّ تحت عِبئِها منذ عصور طوال » .

ثم أوضح ذلك بقوله : « كان العربُ يَحْكُمُون بحسب المنهاج التالي : لقد خَفَّفُوا عِبْء الضرائب بالنسبة إلى الحكام السابقين ، وانتزعوا من أيدي الأغنياء الأرض التي كان يتقاسمها الإقطاعيون ويزرعها الفلاحون الأقنان أو العبيد الناقمون ؛ ووَزَّعُوها بالتساوي على مَن كانوا يشتغلون فيها ، فعكف المُلاك الجُدُد على استثمار الأرض بحماسة شديدة ، واستخرجوا منها محصولًا أوفر من قَبْل . أمَّا التجارة فقد تحرَّرَتْ من قُيُود الحدودِ والمُكُوس الفادحة التي

كانت تُزْهِقُها وتطورت تطورًا ملحوظًا . وكانَ القرآنُ يَسمَحُ للعبيدِ بالتحرُّرِ نظيرَ تعويض مُنْصِفٍ ، فَبَرَزَت من جَرَّاءِ ذلك قُوَى اجتماعية جديدة . وقد أفْضَت هذه التدابير كلها إلى حالة من الرخاء العام ، كانت الحافزَ الأولَ للترحاب الذي استقبل به الحكم العربيّ في عهده الأول » .

يضافُ إلى هذا ، أنَّ الفاتحين العرب ، بتحطيمهم الحواجز التي أقامها الإقطاع في ميدان الاقتصاد ، وبإيجادهم جوًّا جَرَى فيه تبادل البضائع والأفكار على نطاق أوسع من الجوِّ الذي أوجدته الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وبإنشائهم إمبراطورية موحَّدة مركَّزة خاضعة لقانون مكتوب ولإدارة قضائية منظمة ، قد وضعوا الأُسُس الصالحة لتطور الأشياء والناس والأفكار تطورًا تمتاز به المراحل المبدعة التي اجتازتها البشرية ، فإذا بالحضارة القديمة التي جمدت في « بيزنطة » تعاود تحليقها في آفاق الإمبراطورية العالمية الجديدة .

ولقد بدت فضائل الفتح العربيّ أيضًا ، في الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط . وإنه ليسرني أن أستشهد بنصوص أوربية ، في مجال تقييم الفتح العربيّ في هذا الشطر من العالم أيضًا . فإنَّ رجلاً من كبار رجال الكنيسة هو « المونسنيور دوشين » يسرد ،

في معرض دراساته عن حالة الكنيسة في سورية في غُضون القرن السابع ، مقطعًا يستوقف الانتباه قال فيه عن الفتح العربيّ ، بعد أن ذكر الاضطهاد الذي كابده أولئك « اليعقوبيون » الذين لم يقبلوا اتحاد « هراقليوس » : « ... إنَّ إلهَ الانتقام ، وقد رأى شرورَ الرومان ، الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا ويقضُون علينا في كل مكان انبسط سلطانهم عليه ، أرسلَ من الجنوب أبناء « إسماعيل » كي ينقذنا بواسطتهم ، ولم يكن بالفضل اليسير ، إنقاذنا من قسوة الرومانيين ، ومن شرِّهم وغَضَبِهم ، ومِن حَسَدِهم الفظّ ، والأخذ بيدنا إلى ظلال الأمن والراحة التي ننشدها » .

مساهمة العرب في بعث الغرب

إنَّ أمثال هذه الشهادات لتحملنا على الاعتقاد بأن « أناتول فرانس » لم يكن يَصْدُرُ عن نزوةٍ عابرة ، إذ قال بظرفه البارع في « الحياة المزهرة » : « سأل السيد « دوبوا » مرة السيدة « نوزبير » : ما هو أكثر أيام التاريخ شُؤمًا ؟ فلم تستطع السيدة « نوزبير » الإجابة على هذا السؤال .

وحينئذ قال السيد « دوبوا » : « إن أكثر أيام التاريخ شؤمًا هو اليوم الذي جرت فيه معركة « بواتيه » في سنة ٧٣٢م ، حين تراجع العلم والفن العربيين والحضارة العربية ، أمام البربرية الفرنجية » .

بَيْدَ أنه من الحقِّ أن نُصَحِّحَ هفوتين وَرَدَتا في هذا المقطع القصير :

١ – إن الحضارة العربية التي ازدهرت على أيام العباسيين في بغداد ، لم تكن قد وُجِدَت بعد في سنة ٧٣٢م ، أي في سنة ١١٤ من الهجرة ، في عَهْدِ هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي بدمشق .

٢ – ليس في وسعنا القول بأنه كان ثمة « تراجع » إسلامي في « بواتيه » ، وإنما كانت هناك مناوشة قامَ بها العرب أثناءَ عودتهم من غزوة قاموا بها على « سان مارتان دوتور » .

إنَّ غزوة عبد الرحمن الغافقي التي زَحَفَت من الشمال إلى الجنوب ، اصطدمت بـ « شارل مارتل » وهي في طريق العودة إلى إسبانيا ، وقد أتاح الحظُّ لهذا الرجل مساعدة « أودوغاسكونيا » الذي لولا نجدته إياه لما أتيح لـ « شارل » أن يصبح « مارتل » أبدًا[١] .

ولكن يبقى صحيحًا في كلمة « أناتول فرانس » ، أنَّ فرنسا قد أضاعت في ذلك اليوم فرصة تاريخية للاشتراك في الحضارة العربية التي ازدهرت بعد ذلك بزمن وَجِيزٍ ، أي أنها فقدت فرصةً تاريخية لاختصار عهد الفَوْضَى الإقطاعية ، وتكوين وحدتها القومية ، فضاعت بذلك عدة عصور على فرنسا ، وضَاعَ بعض الوقت على البشرية .

ونحن لا نفترض بقولنا هذا افتراضًا رخيصًا ، فإن كاتبًا من أعظم كتاب إسبانيا هو « بلاسكو ايبانير » ، يشهد باسم وطنه ، في الصفحات ٢٠١ - ٢٠٤ من كتابه « في ظل الكاتدرائية » ، بقوله : « إن الأسباب التي أعادت إلى إسبانيا حيويتها وجَدَّدَتْ شبابها ؛ لم تَصِلْنا عن طريقِ الشمال مع القبائل البربرية ، وإنما جَاءَت من

(١) كان شارل محافظ البلاط المروفيني ، وقد لُقِّبَ بمارتل (أي المطرقة) بعد انتصاره في يوم « بواتيه » ، وقد زوقت أساطير العربيين هذا اليوم وأسرفت في المبالغة بأهميته التاريخية . (المُعَرِّب) .

الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان الفتح العربيّ بعثة ممدّنةً أكثر مما كان فتحًا ... عن تلك الطريق وليس عن غيرها ، دخلت إلى بلادنا هذه الثقافة الغنية القوية النشيطة اليقظة ، التي تبعثُ على الدهشة لتقدُّمها السريع ، والتي ما كادت تُولَدُ حتى انتصرت . إن هذه الحضارة التي أوجدتها حماسة النبيّ الدينية ، قد تَمَثَّلَتْ أحسن ما في اليهودية والعلم البيزنطيّ ، وحَمَلَتْ معها - فوق ذلك - التقاليد الهندية وتراث الفرس ، وكثيرًا مما قَبَسَتْه عن الصين الحافلة بالأسرار . فكان الشرق كله هو الذي دَخَلَ بواسطتها أوربا . إلا أن شأنه لم يكن شأن جنود « داريوس » (١) و « كسركيس » (٢) التي دخلت أوربا عن طريق اليونان لمّا صدَّتها هذه إنقاذًا لحريتها ، إذ أقبل هذه المرة من الطرف الآخر من أوربا عن طريق إسبانيا التي كانت تعاني استعباد الملوك اللاهوتيين والأساقفة المحبين للقتال ، ففتحت ذراعيها لاستقبال العرب الفاتحين .

« وقد استولَى هؤلاءِ العرب في غضون سنتين ، على مناطق اقتضت سبعة عصور لاستعادتها منهم ؛ لأنهم لم يكونوا يقومون

---

(١) أحد ملوك فارس ، وقد حكم من سنة ٥٢١ إلى ٤٨٦ ق . م .

(٢) ابن داريوس ، وقد حكم فارس من ٥٨٥ إلى ٤٩٥ ق . م .

في الواقع بغزوة تفرض ذاتها بقوة السلاح ، بل كانوا يُؤلِّفون مجتمعًا جديدًا يدفع أصوله القوية إلى شتى الأنحاء . وكان مبدأ حرية الضمير ، وهو حَجَرُ الزاوية الذي تقومُ عليه عظمة الأمم الحقيقية ، مبدأ مقدَّسًا لديهم . فكانت تقوم في المدن التي تولوا سيادتها كنيسة المسيحي وكنيس اليهودي على السواء .

« ... ولقد نَشَأَتْ في إسبانيا وتطورت - منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر - أجمل وأغنى حضارة وجدت في أوربا طوال القرون الوسطى . فبينما كانت شعوب الشمال تتذابح في غمرة الحروب الدينية ، وتَسلكُ سلوك القبائل الهمجية ، كان عدد سكان إسبانيا يرتفع إلى ثلاثين مليون نسمة ، وكانت تتمازج وتتفاعل - في هذا الخضم من الناس - جميع الأجناس والمعتقدات بتنوع لا حدَّ له ، تَصدُرُ عنه أقوى النبضات الاجتماعية . وفي قلب هذا المزيج الخصب من الشعوب والأجناس المختلفة ، كانت تزدهر جنبًا إلى جنب جميع الأفكار والتقاليد ، وجميع المكتَشفات التي حَقَّقَها الإنسان حتى ذلك العهد ، وجميع الفنون والعلوم والصناعات والمخترعات والأنظمة ، ومن تصادُم هذه العناصر المختلفة كانت تَنْبَثِقُ اكتشافاتٌ جديدة وقُوًى مبدعةٌ جديدة .

« وقد حَمَلَ أولئك الغرباء معهم من بلاد الشرق ، الحريرَ

والقطن والقهوة والليمون والبرتقال والرمان ، وحَمَلُوا السَّجَّاد وصنوف الأنسجة والمعادن والبارود ، كما حَمَلُوا معهم أيضًا التعداد العشري والجبر ، وفن تحويل المعادن والكيمياء والطب وعِلْمَ الفلكِ والشعر المنظوم . وكان فلاسفة الإغريق يوشكون أن يتلاشوا في ظلمة النسيان فأنقذهم العرب وساروا مع الفتح العربيّ إلى كل مكان . واستعاد « أرسطو » مكانته الرفيعة في جامعة قرطبة الشهيرة ... » .

تراث الحضارة القديمة

أوجد الفتح العربيُّ الظروفَ الفكرية المواتية للنهضة الأوربية ، بتوفيره إمكان إحياء الثقافة القديمة ولا سيما الثقافة اليونانية .

ذلك أنَّ العصر الأول من عصور الإسلام ، وهو عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، الذين حكموا في المدينة وفي دمشق ، كان عصر الفتوح .

أمَّا المرحلة الثانية التي بَدَأَت بعد أن توطدت أسباب الملك ، فهي مرحلة الخلافة العباسية ببغداد . وقد استهلت هذه المرحلة عهدها بحقبة من التمثل ، امتدت من سنة ٧٥٠ إلى سنة ٩٠٠ للميلاد هي حقبة الترجمة . فلم ينقضِ القرن التاسع حتى كان « أرسطو » و « غاليان » و « أفلاطون » و « بطليموس » و « إقليدس » و « أرخميدس » قد تُرجموا إلى اللغة العربية .

وفي خلال سني ٨١٣ - ٨٣٣ للميلاد - بينما كانت أوربا تجهل القراءة ، كان الخليفة المأمون يُؤَسِّس في بغداد « بيت الحكمة » المؤلَّف من خزانة كتب ودار عِلْم ومكتب ترجمة ، والذي أصبح التراث اليوناني بواسطته في متناول جميع الذين يتلون القرآن . وبعد قليل من الزمن ، كان الخليفة الحكم الثاني في قرطبة يملك ستمائة ألف مجلد . بينما لم يستطع ملك فرنسا « شارل

لوساج » أن يجمع ، بعد ذلك بأربعمائة سنة ، أكثر من تسعمائة مجلد .

وقد بلغت مرحلة التَّمَثُّل هذه أوجها في نتاج « الكِنديّ » الذي ولد حوالي سنة ٨٥٠ للميلاد . فقد تَبَنَّى هذا الفيلسوف نظرة « أرسطو » إلى العالم ، ووَضَعَ أكبر « موسوعة » عرفتها الدنيا قبل الموجز اللاهوتي الذي أَلَّفَه القديس « توما الإكويني » بعد ذلك بثلاثة قرون . وقد ظلَّ نتاج « الكنديّ » الذي ترجمه « جيرار دوكريمون » إلى اللاتينية ، يثقف الغرب خلال قرون عديدة .

وهكذا تمخَّضَت الثقافة العربية بأول مظهر من مظاهر النهضةِ الأوربيةِ ، وهو مظهرُ الإحاطة بالأصول الثقافية القديمة والحضارة المحدثة .

وصفوة القول إنَّ الفتح العربيّ قد جدَّد حيوية الغرب ، بإعادته إلي العلم اليونانيّ الذي كانت أوربا قد أضاعته ، ولم يبقَ في وسعها استعادته أبدًا .

إنتاج أصيل

وهنا تعترضنا نظريَّةٌ رسميةٌ جديدة تزعم أن الحَضَارة الإسلامية لا أهمية لها إلا باعتبارها حضارة ناقلة ، اقتصرت مهمتها على تَمَثُّلِ الماضي وإيصاله إلى الأجيال الآتية .

وتجدر الإشارة قبلَ الجواب على هذا الزعم ، إلى أنَّ « الرومانيين » أنفسهم لم يقوموا بشيء غير هذا . فالحضارة اللاتينية ليست إلا انتحالًا أو تقليدًا ، أو محاكاة في أحسن الحالات ، للحضارة اليونانية . ومع هذا ، أفسح المجال الأول ، بين الآداب الكلاسيكية ، للغة اللاتينية وللأدب اللاتيني الذي لم يكن إلا أدب تَقْمِيش وتَقْلِيد .

وخلافًا لهذا ، لم يُعْط في التعليم الرسميّ إلا مكان هزيل جدًّا للحضارة العربية ، مع أنها لم تقتصر على إحياء للحضارات البائدة التي سَبَقَ لها أن ازدهرت في العراقِ وفارس ومصر واليونان وروما ، بل قامت خصوصًا بتطوير تراث القدماء واجتازتهم في عصرها الذهبيّ ، الذي امتدَّ من سنة ٩٠٠ إلى سنة ١١٠٠ للميلاد .

إن الاكتشافات العلمية والتكنيكية المدهشة التي تمت في عَهْدِ اليونان بين القرن الثالث والقرن الثاني قبل الميلاد ، لم تستطع أن

تُغَيِّرَ العالم لأسباب اقتصادية واجتماعية . إذ إن اتساع نطاق الرق قد حَالَ دُونَ التكنيكِ العلميّ وقلب الحياة الاقتصادية ؛ لأن استثمار قطعان العبيد الذين يباعون بأسعار تافهة جدًّا كان أكثر فائدة وربحًا من استخدام الآلات . وهكذا أجهضت الثقافة اليونانية ؛ ولم تستطعْ بعد ذلك إنجاب حضارة جديدة .

فكر تجريبي وعملي

أما الشعب العربيّ – هذا الشعب الجوّاب الفاتح – الذي أسّسَ إمبراطورية تجارية ، فإنه بإزالته النظام الإقطاعي الزراعي ، قد وَثَبَ بالعلوم وثبةً جبارة تتلاءم مع الأهداف العملية المثمرة التي عَيَّنَها لها . فوجدت الاكتشافات العلمية والتكنيكية التي تحققت في العهد اليوناني – في هذه الحضارة الجديدة التجارية – الظروف الملائمة لتجسُّدِها .

لقد كانت الجغرافيا – ولا سيما الجغرافيا الفلكية – ضرورة حيوية لدى أولئك الرجال الذين دأبوا على اجتياز الصحاري وجوب البحار . وإن مراصد « سمرقند » و « بغداد » و « دمشق » و « القاهرة » و « قرطبة » ، وهي المراصد الأولى في العالم ، كانت من صُنْع أيديهم . وقد كانوا أول مَنْ قاس درجة في نصف النهار . واستطاعوا أن يحسبوا بدقة انحناءَ سمت الشمس ، ومبادرة نقطة تساوي بين الليل والنهار ، والفرق بين السَّنَة الشمسية والسَّنةِ النجمية .

وقد أعاد « الفزاري » في سنة ٧٧٠ للميلاد بناء « الأسْطُرْلَاب » الذي اخترعه « بطليموس » . ثم أُدخلت عليه تحسينات عديدة في القرون التالية . ولما ترجم « الخوارزمي » « بطليموس » حوالي عام

٨٣٤ م ، وَضَعَ مفهومًا متماسكًا للأطوال والأبعاد .

وكان الجغرافيون والفلكيون العرب أثناء وَضْعِهم - عمليًا - أدلة الطرق وبيان مراحلها لتسيير إدارة الإمبراطورية ، يحافظون على حيوية الفكرة القائلة بكروية الأرض ، هذه الفكرة التي كان يُنْكِرُها رجال اللاهوت المسيحيون .

وقد أَدَّى هذا التقدُّم النظري المرتبط - كما يرجح - بالتفوق التكنيكيّ ، والذي لا يشير إليه أية إشارة لا « لو فيفر ديسنويت » ولا « لارونسيير » في سِفريهما عن تاريخ الملاحة - إلى تأمين السيادة البحرية المطلقة للمسلمين في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط . ويقول « ابن خلدون » إن المسيحيين لم يبقَ في استطاعتهم أبدًا أن ينزلوا إلى هذا البحر ، حتى ولا لوحة خشبية واحدة .

وحوالي منتصف القرن العاشر استطاع المسلمون ، الذين تأسست أحواضهم الأولى لبناء السفن في تونس في أواخر القرن السابع عشر ، أن يبلغوا شواطئ « كانتون » في الصين ، ولعلهم بلغوا « كوريا » و « اليابان » أيضًا .

وبعد خمسمائة سنة ، لما بلغ « فاسكو دوجاما » « المالاند » على شاطئ إفريقيا الشرقي عام ١٤٩٨م ، كان الملاَّح الذي

أرشدهُ إلى طريق الهند ملَّاحًا عربيًّا . وكذلك الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » ، أول مَنْ وَضَعَ كتابًا عن الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج فارس وبحر الصين .

وقد اتخذ البرتغاليون هذا الكتاب أساسًا لدراساتهم البحرية في عهد « هنري » الملاَّح .

وإنَّ أَول مَن فَكَّرَ في شق قناة السويس كان خليفة مسلمًا [١] ، وهو لم يعدل عن تنفيذ فكرته هذه إلا لأسباب استراتيجية محض .

---

(١) هو السلطان « قانصوه الغوري » وقد فَكَّر في شقِّ قناة السويس سنة ١٥٠٤م . (المُعَرِّب) .

من التكنيك إلى العلم

لقد بَلَغَ مِن تَقَدُّمِ علْمِ الفلكِ عند العرب ، أن اعترف بذلك الراهب « جيربر » الذي رُفِعَ إلى كرسي البابوية في سنة ٩٩٩ للميلاد باسم « سيلفستير الثاني » ، على إثر عودته إلى المسيحية بعد أن قضى مدة في الجامعة الإسلامية بقرطبة .

وإن ضرورات التجارة والمحاسبة أفضت بالعرب - كما أفضت بالفينيقيين من قَبْلِهم - إلى قَلْبِ عِلْمِ الحساب رأسًا على عَقِب . فإنَّ اكتشاف الأرقام العربية ، واختراع « الصفر » الذي يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ، قد حَقَّقا الثورة الثانية في العلوم الرياضية منذ عهد الفينيقيين الذين قاموا بالثورة الأولى . ولم تعرف أوربا هذه الاكتشافات إلا بواسطة العرب ، وقد عرفتها بعدهم بمائتين وخمسين سنة في القرن الثاني عشر للميلاد .

وفي علم الجبر وُفِّقَ « الخوارزمي » حوالي سني ٨٣٥ - ٨٤٤م إلى إعادة وَضْعِ المنهج الذي كان يعرفه علماء اليونان لحلِّ المعادلات ذات المجهولين ، واستطاع الشاعر الرياضي « عمر الخيام » الذي تُوفي سنة ١١٢٣ للميلاد حلَّ المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة المنهج الذي استخدمه « ديكارت » بعده بخمسة قرون ، فوضع بذلك أسس عِلْمِ الهندسة التحليلية .

وكذلك لَمَعَ في الهندسة « ثابت بن قرة » الذي تخطى « إقليدس » . أما في حساب المثلثات فإن « أبا الوفا » – وليس « كوبرنيك » – هو الذي اكتشف الخط القاطع .

وقد اكتشف « الفارابيّ » علمَ أنساب العدد « اللوغاريتمات » أثناء دراسة الفواصل الموسيقية . ودرس « ابن سينا » المقادير أو الكميات غير المتناهية .

وفي علم الكيمياء كما تدلُّ على ذلك هذه الكلمات : القلي أو ملح القلي ، الكحول ، الإنبيق [١] ، الإكسير ، وغيرها حَمَلَ العرب إلى الغرب :

أ ـ مناهج : التقطير والتصعيد والتبلور والتجمُّد .

ب ـ منتجات جديدة : القلي أو معدن البوتاسيوم ، والنشادر (الأمونيك) ، والنتريك أو حمض الأزوتيك ، والماء الملكي . والسليماني أو المصعد الأكال ، والورق الذي صَنَعَه العرب من القطن منذ عهد « هارون الرشيد » المتوفَّى سنة ٨٠٩ ميلادية .

أما في الطب فلن نذكرَ إلا اسمًا واحدًا هو اسم « الرازي » الذي عاش بين سنة ٨٦٥ وسنة ٩٢٥ م ، وكان من أكبر الأطباء

(١) آلة تقطير وتكرير .

في جميع العصور . فقد وَحَّدَ هذا النابغة بين الفكر الملاحظ والفكر التجريبي ، فوضع تصنيفًا منهجيًّا أو قياسيًّا للأمراض . وقد أُعيد في انكلترا طَبْعُ الموسوعة الطبية التي أنشأها وترجمها « فراجوت » إلى اللاتينية بأمر « شارل الأول » ، أربعين مرة منذ سنة ١٤٩٨ إلى سنة ١٨٦٦م . وفي عصر النهضة في الغرب أُعيدَ طبعها في « فيينا » سنة ١٥٢٠م وفي « فرنكفورت » سنة ١٥٨٨م . أي أنها ظلَّت طوالَ ألفِ سنة – حتى ظهور « كلود برنار » – توجه الأبحاث الطبية لدى جميع الشعوب .

وإلى الأطباء العرب الذين قدموا من إسبانيا يعود الفضل الأول في الشهرة التي أحرزتها كلية « مونتبليه » لأول عهدها . ولقد شهد « سان برنار » منذ سنة ١١٥٣م ببراعة أطباء « مونتبليه » تلامذة العرب . وأن هذه الكلية التي ظلت حرية الفكر زمنًا طويلًا من مزاياها الأساسية ، لتفخر بأن من طلابها « أديبينا رابله » .

وهذا الأساس التجريبيّ المتين ، ورسوخ دعائم الفتح العربي ، هما اللذان مهرا الفلسفة العربية بأدعى خصائصها إلى الإعجاب .

إن العربي الرحالة والفاتح ، الذي أسس إمبراطورية تجارية بإزالته النظام الإقطاعيّ الزراعيّ في كلِّ مكان دَخَلَه ، قد وَثَبَ بالعِلم والفلسفة وَثْبَة جَبَّارة ، نظرًا للأهداف العملية ذات الفائدة

الملموسة التي نصبها أمامهما . ومن ثم وَجَدت الاكتشافات العلمية والتكنيكية التي تحققت في العهد اليوناني ، في هذه الحضارة التجارية الجديدة ، الظروف المواتية لتجسُّدِها وازدهارها من جديد .

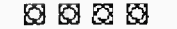

فلسفة عقلية وفكر نقّاد

إن الروح التي تُمَيِّزُ هذا العلم وهذه الفلسفة المرتبطين ارتباطًا وثيقًا بمشاكل الحياة اليومية ، في عصر كانت المسيحية [١] راقدة في ظلال التَّقَشُّف الصوفي وفلسفة القرون الوسطى – إن لم يكن في ظلال الجهل المطبق – لتذكر بالمفكرين اليونانيين القريبين منا [٢] باتجاههم المادّيّ والعقليّ .

فـ « ابن سينا » (٨٥٠ – ١٠٣٧ م) الطبيب والفيلسوف ، و « ابن رشد » (١١٢٦ – ١١٩٨ م) فيلسوف قرطبة العظيم والفقيه المجدد والعالم الطبيعي الشهير ، قد أعلنا قبل « ديكارت » بخمسة قرون حقَّ إخضاع كلِّ شيء – ماعدا العقائد الدينية الصادرة عن الإيمان – إلى حُكْمِ العقل . ولم يكونا كما أشاع طوال قرون مفسرهما « النوردي سيجر دوبرابان » ، رسولي الإلحاد ، بل كانا رائدي الفكر الناقد والمذهب العقلي الحديث .

وقد أدرك ذلك كلَّ الإدراك الشاعر « دانتي » الذي انطبع تفكيرُه بالطابع الإسلامي ، والذي أثنى على « ابن رشد » ثناءً

---

(١) يريد أوربا المسيحية .

(٢) أي القريبين من الاتجاه الماركسي . (المُعَرِّب) .

عظيمًا في النشيد الرابع من كتاب الجحيم في « الكوميديا الإلهية » . كما أدرك ذلك « روجر باكون » أكبر مفكري الغرب في القرن الثالث عشر وأكثرهم تحرُّرًا . فقال : « **إن الفلسفة مستمدة من العربية . وليس من لاتيني واحد يستطيع أن يفهم حكمة الكتاب المقدس والفلسفة كما ينبغي لها ، إن لم يكن يجيد اللغات التي ترجما عنها** » .

وعلى إثرِ الخروج من القرون الوسطى لم يقف الشرق عند كونه مُثَقِّف أوربا بإنجابه النماذج العديدة من أولئك الرجال الكاملين ، أمثال « البيروني » (٩٧٣ - ١٠٦٨ م) الطبيب والفلكي والرياضي والجغرافي والمُؤَرِّخ والعالم الطبيعيّ ، الذين يحيطون بجميع المعارف البشرية ولا يظهرون إلا عندما تبلغ الحضارات ذروتها القصوى ، والذين أنجب عصر النهضة الغربي بدوره نماذج جديدة منهم . بل إن الأكاديميات الإسلامية - بمكتباتها وكُلِّيَّاتها الأربع ، ومناهجها الدراسية وأنظمتها ودرجاتها الجامعية وطلابها الأجانب ، التي أعطت أوربا نماذج عن أنظمة التعليم - قد انتشرت أولًا في أوربا المسلمة في « سالرن » بصقلية و « قرطبة » بإسبانيا ، ثم في أوربا المسيحية التي تبعت وقلدت تلك النماذج ، بجامعاتها الكبيرة في « بولونيا » . و « باريس » و « مونتبليه »

و « أوكسفورد » في القرن الثالث عشر .

وهكذا نَشَأَت الديانة الإسلامية واللغة العربية وحدهما في شبه الجزيرة العربية ، بينما ولدت الفنون والعلوم والفلسفة في أحضان الإمبراطورية العربية ، لما انتقل العرب من خيامهم المنسوجة من شَعْر الماعز وَوَبر الجمال إلى القصور المبنية من الرخام ، ومن الغزوت الدامية في عَرْضِ الصحراء إلى السيادة الإمبراطورية التي صارت للخلفاء .

لقد استيقظ العالم حينئذ من غفلته وخَرَجَ من رُكُوده . فَبُعِثَت الأفكار والأنظمة البائدة أو استعادت شبابها ، وعادت الأقطار الموات في العراق ومصر وفارس ويونان إلى ازدهارها ، كما عادت البشرية إلى مواصلة سيرها ومتابعة رقيها .

ولم تكن فلسفة هذه الحضارة التجارية لتوحي الهرب من معترك الحياة أو الانفصال عنها . إن مثلها العليا لم يبشر بها ، في نشأتها الأولى ، عبيد أرقاء ، بل بَشَّر بها فاتحون طامحون . فهي ليست إذن ، في نشأتها ، « ميتافيزيقيا » تمخض بها عالم كان يجد نفسه في مأزق لا مخرج منه ، شأن المسيحية ؛ لأن طريق المستقبل والسيادة كانت تنشق في زمن الفتح العربيّ أمام الإسلام .

النظام الاقتصاديّ والاجتماعي

إن الشرائع التي حَمَلَها الإسلام إلى البلدان التي افتتحها هي من مميزات الحضارة التجارية ، على عكس النظام الإقطاعي الزراعي .

يشهد بذلك نظام الضرائب ، ونظام الملكية ، والتنظيم المدنيّ .

أ – نظام الضرائب – كانت الضرائب خلال القرون الوسطى في الغرب المسيحيّ ، تُفْرَضُ على الأرض وحدها . ولكن منذ عهد النبيّ ظَهَرَ نظام جديد للضرائب ، هو نظام الضرائب التي تُفْرَضُ على الملكية الشخصية .

يقول الماورديّ : « ليس على الأرزاق من ضريبة غير الزكاة » .

وإليك تعريف نظام الزكاة كما ورد في القرآن : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والغرضُ المقصود مِن هذه الضريبة واضح كل الوضوح ، فإن الأموال التي تُجْمَعُ من الزكاة يجب إعطاؤها ، كما جاء في القرآن : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] . [التوبة : ٦٠] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٠ وهذا نصها الكامل : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ =

ولم يلجأ الغربُ ، إلا بعد الحروب الصليبية ، ومحاكاة للعرب ، إلى وَضْعِ المكوس على الأشخاص والأدخال ، فجرتْ فرنسا على ذلك في عهد « لويس السابع عشر » سنة ١١٤٦ وسنة ١١٦٥ م ، وتبعتها إنكلترا في سنة ١١٦٦ م .

ب – نظام الملكية – إنَّ مجموعة الأحاديث النبوية تُعْطِينا هذه القاعدة الذهبية بصدد الملكية العقارية :

لا يحقُّ لأحد أن يملك أرضًا إلا إذا استغلها بعمله وزَرَعَها بنفسه (١) .

= فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين « الفقير » و « المسكين » .

أما « العاملون عليها » فهم الجُباة الذي يُحصِّلُون هذه الضريبة .

وأما « المؤلَّفة قلوبهم » فهم قومٌ كانوا يُظْهِرُون الإسلام في أول عهده ، وكانوا يُتَأَلَّفُون بدفع سَهْم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم ، وقد زالوا بعد انتشار الإسلام . والمراد بالرقاب عتقها أي : تحرير الأرِقَّاء ، أما « الغارمون » فهم الذين رَكِبَهُم الدَّيْنُ ولا وَفَاء عندهم به .

وفي « سبيل الله » أي في كل سبيل نافع للناس ، أما « ابن السبيل » فهو الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده – راجع « الجامع لأحكام القرآن » ج ٨ ، ص ١٦٧ .

(١) في الحديث الشريف : « لا يُؤْجِرُ أحدٌ إلاَّ بكدِّ يمينه ، ويُؤْجَرُ – أي : يقابل بأجر – يراد بها هنا معناها الواسع الذي يشمل كلَّ نَفْع مادّيّ ، فالأرض مثلًا تُؤجرك =

وفي القرآن : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ .

ويروي « أبو يوسف بن يعقوب » صاحب « كتاب الخراج » هذا الحديث الشريف : « مَن أحْيَا أرضًا مَوَاتًا فهي له » .

ويعترف « شارل جيد » في كتابه « درس الاقتصاد السياسيّ »

= أي : تنفعك وتغلُّ عليك إذا عملت فيها . ويُروَى أن الرسولَ أقطعَ أناسًا من « مُزينة » أو « جُهَيْنَة » أرضًا بقصد تعميرها فلم يعمروها وجاء آخرون فعمروها ، فاختصم « الجهنيون » أو « المزنيون » إلى « عمر بن الخطاب » فقال : « مَنْ كانت له أرض ثم تَرَكَها ثلاث سنين لا يعمرها ، فَعَمرها قومٌ آخرون فهم أحقُّ بها » . وتحسن الإشارة هنا إلى أن الأصل في الإقطاع في الإسلام الالتزام والكِراء ، فقد كانت الناحية أو القطعة من الأرض تُؤَجَّر لمدة معينة يتولَّى المستأجِرُ خلالها كما يقول « المقريزي » : زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويجعل ما عليه من الخراج إبانة على أقساط . ويحسب له من مبلغ قبالته (أي : كفالته) وضمانه لتلك الأراضي ، ما ينفقه على عمارة جسورها وسدّ ترعها وحَفْر خلجها بضرابة مقدَّرة في ديوان الخراج ، ويتأخَّر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين ، ويقول « جروهمان » : « إنَّ الشخص الذي يحوز الأرض باعتبارها صنيعة مستأجرة أو إقطاعية كان يُؤَدِّي عنها الخراج ، وإن إيجار هذه الأرض مدة أربع سنين مثلًا لم يكن سوى مظهر من مظاهر الرسمية ، وهو أشبه بحجَّة بحقِّ ملكية الدولة لهذه الأرض » : راجع : النظم الإسلامية : حسن إبراهيم حسن ، علي إبراهيم حسن . ص ص ٢٧٠ - ٢٧٤ . (المُعَرِّب) .

الجزء الثاني الصفحة ٢٣٦ ، بقوله : « **إن المشرِّع الإسلامي لا يُقِرُّ ملكية المرء الفردية إلا على الأراضي التي كانت ميدانًا لعمل فعَّال مِن قِبَلِه** » .

وقد احترم الإسلامُ هذه الفكرةَ التي تُقَرِّر أنَّ العملَ وحده هو الذي يُنْشِئُ الملكية ، حتى أنَّ الفتحَ الذي ترافقه مصادرة الملكية لم يُقبل في العرف الإسلاميّ إلا في أحوال قليلة ، كضَرْبٍ من الأَخْذِ بالثأرِ ، وذلك تقدُّم كبير بالنسبة للمجتمع القديم .

ولا يقلُّ عن ذلك دلالة على التقدُّم ، إلغاء المبدأ الرومانيّ الذي يُقِرُّ « حقَّ التصرُّفِ وإساءة التصرُّفِ » . ففي الشرع الإسلامي ، كما يُرَدِّد البخاريّ غير مرة : « كلُّ تخريبٍ للأرزاق لا طائل منه هو خطيئة » .

وواضح أن هذا المفهوم للملكية إنما يَصْدُرُ عن احترام للعمل . فبينما كانت أوربا المسيحية تضع في الدرجة الأولى التأمُّل أو السلاح ، وتخصُّ الأقنان وحدَهم بالعمل ، كان الشرْعُ الإسلاميُّ يحضُّ على كلِّ نشاط عمليّ ، ويُولي العمل والزراعة والتجارة احترامًا كبيرًا ، ويطلب مِنْ كلِّ إنسان أن يعيشَ من عملِ يديه ويزدري أولئك الذين يعيشون من عملِ الآخرين .

التنظيم البلدي

إنَّ نظام « الطوائف الحرفي » ، الذي لم تعرفه أوربا إلا بعد عدة عصور قد ظَهَرَ خلالَ القرنِ التاسع في فِرَقِ « القرامطة » . وإن « نظام البلديات » الذي لم يظهر في أوربا إلا بعد الحرب الصليبية ، قد وُجِدَ منذ أمد بعيد في العالم الإسلاميّ ، مع مُؤَسَّساته الخاصة ، وكان « المحتسب » هو الذي يُدِيرُ النشاط الاقتصاديّ ويُؤَمِّنُ النظامَ (١) . وقد عاد التنظيم السياسيّ الذي كان سائدًا في مدن اليونانية التجارية القديمة ، فظهر في الغرب ثانيًا بفضل العرب ، وأُمِّنَ بواسطة « بيزنطية » اتصال الحضارات بعضها ببعض . وفي إسبانيا ، حيث كان الأثرُ الذي تَرَكَهُ العرب أعمق منه في أي بلد آخر تألَّف أوَّل برلمان في أوربا . وفي المدن الإسبانية أيضًا وُضِعَت نماذج الحياة البلدية ولكل منها ميزانيتها المستقلة ومديروها المنتخبون ، بينما كانت تنمو زراعة علمية وصناعة واسعة للنسيج والمعادن والجلد ، وتنشأ أرقى ملاحة في أوربا وهي الملاحة التي اكتشفتْ فيما بعد القارَّةَ الأميركية .

---

(١) كانت شُؤُون القضاءِ عند العرب مُوزَّعة بين القاضي والمحتسب وقاضي المظالم . وكانت مُهمَّة « المحتسب » عملى ما جاء في « الأحكام السلطانية » ص ص ٢٢٧ – ٢٣٠ ، ومقدمة ابن خلدون ص ص ٣٢٥ – ٣٢٦ ، النظرَ في مراعاة أحكام الشرع ، والإشرافَ على نظامِ الأسواق ، ومَنْع بروز الحوانيت بشكل يمنعُ المرورَ ، واستيفاء الديون ، والكشف على الموازين والمكاييل . (المُعَرِّب) .

السابق ابن خلدون

لقد تعددت الأفكار التي وُلِدَت في هذه المدن التجارية نطاقَ القرون الوسطى ، وسَبَقَت عصر النهضة الأوربي والقرن الثامن عشر الفرنسيّ .

وأبرز الوجوه وأكثرها تقدُّمًا ، من وجهة النظر هذه ، هو وجه العلاَّمة « ابن خلدون » [١٣٣٢ - ١٤٠٦م] الذي كان في وقت واحد عالمًا وفنانًا ومحاربًا وفقيهًا وفيلسوفًا ، والذي يُشَابه باتساع معارفه وشمول عبقريته ، وهو ابن القرن الرابع عشر ، جبابرةَ عصر النهضة .

إنّ هذا الرجل الذي وُلِدَ في « تونس » ودَرَس فيها ، قد أرغم « تيمورلنك » نفسه ، وهو أعنف الفاتحين ، على أن يقف أمامه موقف الاحترام والإعجاب ، وأن يدعه يغادر « دمشق » مع أصحابه في سنة ١٤٠٠م .

وعندما يقرأ الغربيُّ « مقدمة ابن خلدون » يرى فيه ، وهو ابن القرن الرابع عشر كما قلنا ، سابقًا لـ « ماكيافيلي » و « ديكارت » و « مونتسكيو » بثلاثة قرون . فحينما وَضَعَ ابن خلدون المعضلة السياسية بشكل ملموس وعلميّ ، متسائلًا : كيف يتوطد السلطان ؟ ما هو منشأ الدولة ؟ كيف تتأسَّس دولة ما ؟ قد بَلَغَ بتفكيره منزلة لم يُعلَ عليها ، خلال القرن السادس عشر ، في كتاب « الأمير » لماكيافيلي .

وحينما وَضَعَ القواعد الضرورية للتاريخ العلميّ ولعلم الاجتماع ، قد ضاهى وسَبَقَ « روح القوانين » لمونتسكيو .

ذلك أن ابن خلدون كان السابق إلى تعريف النقد التاريخيّ يوم كانت أوربا لا تعرفُ إلا رواة الأخبار ، فقال : « **إنَّ في التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السُوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال . إذ هو في ظاهره : لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأُوَل ، تنمو فيها الأقوال ، وتُضْرَبُ فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غَصَّهَا الاحتفال ، وتُؤَدِّي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نَادَى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال . وفي باطنه : نَظَرٌ وتحقيق ، وتعليلٌ للكائنات ومبادئها دقيق ، وعِلْمٌ بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق ، وجدير بأن يُعدَّ في علومها وخليق .. »**[1] .

(١) ينتقد ابن خلدون أكثر المؤرِّخين الذين سَبَقُوه ، ويرى أن التاريخَ صار على أيديهم واهيًا ومختلطًا ومنتحلًا ، ثم يُبين ضرورةَ تمحيص الأخبار وتعليل الوقائع ، معدِّدًا الأغلاط والأوهام التي يقع فيها المؤرِّخون والأسباب التي تحملهم على ذلك ، مُبَيِّنًا الطرق التي يجب اتباعها في تَقَصِّي الحقائق وتمييز الصدق من الكذب =

وإنَّ لهجة المقدِّمة لتستدعي إلى الذهن بقوَّةٍ لا تقاوم ، لهجةَ « خطاب في المنهج » لديكارت . وهكذا نجد أنه بينما ظلَّ التاريخ في أوربا حتى منتصف القرن الثامن عشر مفهومًا للتاريخ الذي يشرح الأمور ويعلِّل أسبابها : « **أنشَأْتُ في التاريخ كتابًا ... سلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكًا غريبًا ، واخترعْتُه من بين المناحي مذهبًا عجيبًا ، وطريقًا مبتدعًا وأسلوبًا ... استوعب أخبار الخليقة استيعابًا ، وذلَّلَ الحكم النافرة صعابًا ، وأعطى لحوادث الدول أسبابًا ...** » ، « **لم أترك شيئًا في أولية الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرُّف والحول ، من القرون الخالية والملل ، وما يعرض في العمران من دولة ومِلَّة ، ومدينة وحلّة ، وعِزَّة وذِلَّة ، وكثرة وقِلَّة ، وعِلْم وصناعة ، وكَسْب وإضافة ،**

= وأهمها معرفة طبائع العمران أي سُنَنه التي يجري عليها : فالقانون في تمييز الحقّ من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة ، أن ننظر في الاجتماع البشريّ الذي هو العمران ، ونميّز ما يلحقه من الأحوال لِذَاته ومقتضى طَبْعِه ، وما يكونُ عارضًا لا يعتدُّ به ، وما لا يمكن أن يعرضَ له . وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانونًا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهانيّ لا مدخل للشَّكِّ فيه » (ص ص ٣٧ - ٣٨) . ويقول في مكان آخر : وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق ، فإن نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حدًّا بين الواقعات ، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة للشيء (ص ١٨٢) . (**المُعَرِّب**) .

وأحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر ، وواقع ومنتظر ، إلا واستوعبت جملةُ ، وأوضحت براهينه وعِلَله ... » .

والحقُّ أنَّ ابن خلدون لم يضع فلسفة للتاريخ وحسب ، بل دَشَّنَ التاريخ العلميّ . وقد كانت الملاحظة عنده تَطْغَى على الأحكام المجرَّدة .

وهو يُسَجِّلُ بدقَّةٍ تأثير البيئة الطبيعية والظواهر الاقتصادية في حياة الأمم ، ويدرس تركيبَ المجتمعات المؤسَّسة على التعاون الاقتصادي وتقسيم العمل ، ويُصَنِّف الشعوب والمجتمعات بالنسبة لطريقة إنتاجها الاقتصادي . وإنه ليضع هذا التعريف الواضح الذي هو أحد مبادئ المادية التاريخية : « **إنَّ اختلاف الأجيال في أحوالهم ، إنما هو باختلاف نِحَلَتِهم من المعاش** »[1] ... « **فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله** »[2] .

(١) المقدمة . ص ١٢٠ .

(٢) المقدمة . ص ١٢ .

إنهيار الحضارة العربية

ومع ذلك ، فإن هذه الحضارة المشرقة قد بلغت أوجها ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، وبَدَأ في الوقت نفسه انهيارها ؛ لأن فَوضَى الإمبراطورية وتجزئة سلطة الخلفاء حَطَّما محور العلاقات الاقتصادية .

وفي ذلك النطاق الاقتصاديّ الذي كان يغلق شيئًا فشيئًا ، وينطوي على ذاتِه ، وتقوم الحواجزُ حولَه في كل إقليم ، أصبح الإنتاج السِّلَعي عديم الفائدة ؛ لأن الأسواق المحلِّية لا تستطيع استهلاكه .

وهكذا أخذت المقاطعات المختلفة التي يحكمها العرب تعود إلى الصناعة المنزلية الضيقة ، وإلى الاقتصاد الزراعي ، وإلى النظام الإقطاعي .

وما كادت هذه الإمبراطورية الواسعة التي كان ينقصها التماسك الداخلي ، ترتد إلى المرحلة الإقطاعية ، حتى أصبحت فريسة لغزوات الصليبيين من الغرب ، وغزوات تيمورلنك والمغول من الشرق ، فأُغْلِقَ بذلك فَصْلٌ رائع من تاريخ الحضارة البشرية .

الإمكانيات التاريخية التي تؤمّنُ بعثَ الحضارة العربية

كيف نتصوَّر ، في الوقت الحاضر ، البعث الذي تزدهر فيه الخصائص الأصلية للحضارة العربية القديمة ، وتعاود مساهمتها الفعّالة في التاريخ ؟

إنَّ ثمة مثالاً على ذلك قدَّمته الجمهوريات السوفياتية ، كجمهورية أوزبكستان مثلًا ، التي تسكنها شعوب إسلامية اتَّحدت مع الشعب الروسي في مكافحة أعدائها المشتركين من المضطهِدين المستعمِرين .

بفضل هذا الاتحاد مع الكادحين الروس في نضالهم ضد المستعمرين الروس أنفسهم ، استطاعت الشعوب المستعمرة في روسيا القيصرية :

١ـ أن تحصل على المساواة التامة في الحقوق ، دون أي تمييز عُنصُريّ ، مع جميع مواطني الاتحاد السوفياتي .

٢ـ أن تُعَمِّمَ الصناعة في بلادها ، أي أن تقضي إلى الأبد على إمكان عودتها بلادًا مستعمَرة لأية دولةٍ كانت ، تمدُّها بالمواد الأولية وتستهلك بضائعها .

٣ـ أن تنمي وتطور ثقافتها القومية بروح عبقريتها الخاصة

التقليدية ، وإن الأمم الشرقية الحرّة لتتطور اليوم ، في نطاق الاتحاد السوفياتي وفي جميع ميادين الحياة ، كما سَبَقَ للحضارة العربية أن أظهرت خصائصها المبدعة ، فتنجب الأدباء الكبار كالشاعر الغنائي « جمبول » الذي أحرز جائزة « ستالين » في الشعر لسنة ١٩٤٢ ، وتنجب الأبطال الصناديد كالجنرال « نابي انيتاييف » مدرب الهابطين بالمظلات في الجيش الأحمر . ويحيا علم « الرازي » أستاذ الطب في البروفسور العظيم « محمدوف » الذي قام في مستشفى « باكو » بالعمليات الجراحية التي تجاوب صداها في العالم كله .

إن سهول « كازاكستان » التي كانت تُسمَّى لعشرين سنة خلت « سهول الجوع » قد أصبحت الآن سهولًا غنية التربة خصبة الإنتاج . وإن جنائن العرب القديمة قد ازدهرت من جديد في مزارع « الكازاكيين » .

وقد أجمل « كومباها » رئيس جمهورية أوزبكستان هذا التقدُّم الجبار بقوله أخيرًا : « **إن الشعب الأوزبكي قد وَجَدَ وطنه في الاتحاد السوفياتي ، وكوَّن أمة ، وبنى دولة خاصة به . ولقد دافع الشعب الأوزبكي ، في حربه على ألمانيا الهتلرية ، عن وطنه الخاص ودولته الخاصة ، وعن سعادته وحقه في الحياة** » .

وإن هذا المثال الرائع ، ليكشف لنا عن إمكانيات البعث التي تتفتح أمام الشعوب العربية في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا .

ويقيننا أن ازدهار الثقافة والحضارة العربية منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر للميلاد ، ذلك الازدهار العظيم ، ليُكذِّب تكذيبًا قاطعًا أصحاب « المذاهب العنصرية » ونظرياتهم في انحطاط بعض الأجناس ولا سيما الجنس السامي الذي تحدرت منه الشعوب العربية .

إن الماضي المجيد الذي كان للحضارة العربية ، ونهوض الشعوب الإسلامية في الشرق السوفياتي اليوم نهضتها الجبارة ، ليبرهنان بصورة لا تقبل الجدل على أنَّ العرب يستطيعون أن يساهموا مساهمة كبرى في ميلاد حضارة أصيلة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتقاليد الثقافة العربية القديمة وتراثها العريق ، كما ترتبط بفتوحات الحضارة الغربية المعاصرة .

تم الكتاب بحمد الله